جامعة تلمسان

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم علم الآثار **السنة الجامعة: 2020 – 2021**

المستوى: ماستر1 السداسي : الثاني التخصص: الآثار الإسلامية

عنوان المقياس: مصادر الجزائر في العصر الحديث

أستاذ المادة: أ.د بلحاج معروف

Email:archeomarouf@gmail.com

عنوان الدرس وصف إفريقيا لحسن الوزان الفاسي

وصف إفريقيا لحسن الوزان الفاسي

نبذة عن حياة المؤلف:

ولد الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون إفريقيا أو يوحنا ليون إفريقيا بغرناطة سنة 894هـ/1488م، ونشأ بفاس، وعمل في الديوان مع الوطاسيين على عهد محمد الشيخ ابن أبي زكرياء وعهده ولده محمد الشيخ البرتغالي، وقام بعدة رحلات في شؤون إدارية داخل المغرب وأحيانا خارجه، وفي سنة 926هـ/1518م سقط في الأسر وهو في نحو الثلاثين من عمره، وأهداه القراصنة الذين أسروه للبابا ليون العاشر في روما، فمكث فيها نحو اثنتي عشرة سنة، ألف خلالها عدّة كتب، أشهرها كتاب "وصف أفريقيا" الذي ألفه الحسن بن محمد الوزان سنة 933 هـ/1526م، وذلك بعدما قضى ثمانية أعوام من الإقامة في إيطاليا، ثم استطاع الإفلات نحو سنة 1530م فتوجه إلى تونس، وعاد لدينه وحريته، ولعله مات بعد سنة 944هـ/1537م، وهو في نحو الخمسين من عمره، ويكتنف الغموض المرحلة الأخيرة من حياته.

عريف الكتاب:

الكتاب (وصف إفريقيا) يقع في أكثر من 660 صفحة، ترجم إلى اللغة العربية في المرة الأولى من قبل الدكتور عبد الرحمن حميدة أستاذ الجغرافية بكلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية، ترجمة عن الترجمة الفرنسية التي قام بها ايبولار، EPAULARDالجنرال الطبيب الفرنسي والتي نشرت سنة 1956 ضمن جزئين.

وترجم الكتاب إلى اللغة العربية بمبادرة من كلية العلوم الاجتماعية، في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وبمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول في مطلع سنة : 1399 – 1979.

كما قام بترجمة الكتاب محمد حجي من مواليد 31يناير 1923 بمدينة سلا المغربية، وهو المؤرخ والموسوعي والكاتب والباحث الجامعي المغربي، تحصل على وسام الاستحقاق الكبير للكتاب سنة 1988م.

محتوى الكتاب:

والكتاب مقسم إلى تسعة أقسام، خصص القسم الأول منه للحديث عن إفريقيا بصفة عامة، فتحدث عن انشقاق اسمها، وعن حدودها، وأقسامها وممالكها، وصحاريها الواقعة بين نوميديا وبلاد

السودان وعن المماليك السودانية،.ثم تحدث عن أصل الأفارقة وعن الخلاف في و ذلك وعن متوسط أعمارهم، وعن مدلول كلمة بربر، وعن اللغات الإفريقية وعن دخول العرب إلى إفريقيا مع التوزيع السكني للعرب وقبائلهم ونمط حياتهم...وتكلم عن ديانة قدامى الأفارقة وعن كتابتهم التي كانوا يستعملونها،

وفي هذا القسم تكلم أيضا عن المظاهر الطبيعية لأفريقيا، مثل الأماكن الموحشة، والثلجية، وحركات الهواء، ومميزات الفصول، ثم تحدث عن الأمراض الأكثر شيوعا بين الأفارقة، وختم هذا القسم بالكلام عن الخصال الممدوحة و المذمومة فيهم.

وتضمن القسم الأول من الكتاب معلومات تاريخية وجغرافية مهّمة، وخاصة منها تلك المعلومات التي تتعلق بعناصر السكان، وبامتزاج هذه العناصر، وما يتعلق بالهجرات العربية منذ زمن الفتح إلى خروج العربي من الأندلس.

أما القسم الثاني من الكتاب فبدأه بالحديث عن إقليم حاحة غرب المغرب الأقصى فتحدث عن مرقعه وتضاريسه ونمط حياة سكانه، ولباسهم وعاداتهم، ثم تحدث عن أهم مدن هذا الإقليم، ثم يتكلم في هذا القسم عن إقليم سوس وعن مدنه وقراه وجباله وسهوله وموانئ.

ثم تكلم عن منطقة مراكش ذاكرا أسماء المدن و القرى والأسواق والمراكز والجبال، وتعرض لمنطقة جزولة ودكالة وللمدن الساحلية التي كانت محتلة آنذاك كآسفي وأزمور، وغيرها، وفي هذا القسم تحدث كذلك تكلم عن مناطق أخرى بالمغرب الأقصى مثل منطقة مسكورة ومنطقة تادلة.

أما القسم الثالث فخصصه للحديث عن مملكة فاس، وهي تضم عنده إقليم تامسنة بما فيه من مدن وقرى، كأنفة، والرباط، وشالة ..

وفي هذا القسم الثالث الذي خصصه للكلام عن مملكة فاس تكلم عن منطقة بلاد (الهبط) واصفا المدن والقرى ونمط حياة السكان، وتحدث عن المدن الساحلية – المحتلة من طرف البرتغاليين في ذلك الوقت – أصيلا، طنجة، القصر الصغير، سبتة، وفي هذا القسم تحدث أيضا عن إقليم الريف ويقصد جبال الريف حسب المصطلح الجغرافي، وضمن هذا الإقليم تكلم عن : ترغة، وبادس، والجبهة، والزمة وشفشاون، وجبال غمارة وقبائلها، كالأخماس، بني أحمد، وبني زروال وبني مزكلدة... وفي القسم الخامس تكلم عن مملكة بجاية وتونس، وفي القسم السادس عاد للكلام عن الصحراء المغربية.

أما القسم السابع فخصصه للكلام عن بلاد السودان. كماأنّه خصص القسم الثامن للكلام عن مصر.

وأنهى كتابه بالقسم التاسع الذي تحدث فيه عن أنهار، ونباتات، وحيوانات إفريقيا.

والملاحظ من خلال المعطيات التي يحملها الكتاب أن المؤلف كان معتزا بنفسه، واثقا من معلوماته، يحكي الواقع، كما شاهده ولاحظه، من غير تحفظ أو تردد، وهو في ذلك يبلغ منتهى الصراحة إلى حد أنه يذكر أحيانا ما يخجل القلم من تسجيله. وهو ينتقد الطرق الصوفية انتقادا مرا، كما ينتقد المشعوذين، والعرافين، والدجالين، وكل أصناف المحتالين. وهو ينتقد كثيرا من العوائد، في كثير من الجهات والمناطق، وأحيانا يكون لاذعا في سخريته. ونشعر أحيانأنّه صاحب عقيدة فذة، وفكر نير، ومع كل هذا يشعر القارئ أن المؤلف كان يفتقر إلى بعض المراجع أثناء تأليفه للكتاب، وأن مذكرته كانت غير كافية أحيانا عند تطرقه لبعض المواضيع.

ومهما يكن من أمر فالحسن الوازن بذل مجهود فريدا من نوعه في كتابة (وصف إفريقيا) وهو كتاب جدير بالقراءة خاصةوأنّه يلقي أضواء كاشفة على بعض المراحل الغامضة من تاريخنا.

وفيما يخص الجزائر فقد تناول حسن الوزان مملكة تلمسان بالتفصيل، فتحدث عن حددها، حيث يشير إلى أنها يحدّها واد زا و نهر ملوية غربا، و الواد الكبير (الصومام)، وصحراء نوميديا جنوبا. وكانت هذه المملكة تحمل في القديم إسم قيصرية، عندما كانت خاضعة لسيطرة الرومان، ثم آلت إلى ملوكها الأقدمين وهم بنو عبد الواد المنتمون إلى مغراوة بعد أن أجلى الرومان عن إفريقيا، وقد احتفظوا بالملك مدة ثلاثمئة سنة، إلى أن انتزعه منهم الأمير يغمراسن بن زيان وورثه عنه أحفاده بحيث أن هؤلاء غيروا اسمهم، وصاروا يدعون ببني زيان.

ويذكر الكاتب الموانئين المشهورين في هذه المملة وهما؛ ميناء وهران وميناء المرسى الكبير، لكن هذين الميناءين سقطا في يدي الملك الكاثوليكي فرناندو، فكان ذلك خسارة عظمى لمملكة تلمسان، حتى أن الشعب طرد الملك أبا حمو وعوضه بأحد أعمامه و أعمام أبيه أبي عبد الله، وهو المدعو أبو زيان، فأخرج من السجن ورفع على العرش، لكن ذلك لم يدم طويلا، حيث إن عروج بربروس التركي طمح إلى الملك، فقتل أبا زيان غيلة، ونصب نفسه ملكا، ولما طرد الشعب أبا حمو توجه فورا إلى وهران، وقطع البحر إلى إسبانيا قاصدا الإمبراطور شارل كارلوس متضرعا إليه أن يعينه وينجده على أهل تلمسان والتركي بربروس، فأظهر الإمبراطور رحمة وشفقة عليه، فلبى دعوة الملك، وأرسل معه جيشا قويا هائلا، فرجع إلى مملكته، واستطاع أن يقتل عروج بربروس وعددا من أتباعه، ثم

يضيف الكاتب إلى أن سكان تلمسان كانوا ينقسمون إلى أربعة فئات الصناع والتجار والطلبة والجنود، .ثم يصف بعد ذلك مدن تلمسان والأقاليم المجاورة.

كانت بجاية وحكامها تابعة لا محال إلى سلطان تونس، لكن ملوك تلمسان احتلوها، وبسطوا نفوذهم عليها مدة طويلة، إلى أن شعر أبو فارس ملك تونس بقوة شوكته أخضع ملك تلمسان إلى سلطته، وترك أبو فارس أحد أبنائه حاكما على بجاية، واستمرت السلطة الملكية طويلا إلى أن انتزعهما منهم الملك الإسباني فردناند بقوة السلاح .

مدينة بجاية حسب حسن الوزان مدينة عريقة بناها الرومان، فبعضها في منحدر جبل شاهق على ساحل البحر المتوسط، يحيط بها أسوار عالية متينة، فيها جوامع كافية ومدارس يكثر فيها الطلبة وأساتذة الفقه والعلوم، بالإضافة إلى زوايا المتصوفة، وكانت تشتمل على حمامات وفنادق ومارستانات ..إلخ، ويوجد في البلاد أناس يسمون بالباجائيون أناس طيبون ميالون إلى المرح لاسيما منهم الأمراء الذين لم يشهروا الحرب على أحد، وقد ظهر جبنهم إلى حدأنّ هم عندما جاءهم الكونت بير نافارو ببعض سفن النقل فروا جميعا إلى الجبل، وعلى رأسهم الملك حاملين معهم كل ما يملكون، فأخذ الكونت بير المدينة ونهبها، ثم شيد بسرعة قلعة قرب البحر.

يشير الكاتب إلى محاولة بربروس التركي استرجاع بجاية من أيدي النصارى بعد ست سنوات، حيث نزل أمام المدينة بألف من الجنود الأتراك، وهجم على القلعة القديمة، فأخذها وحصّنها، ثم وافته قبائل الجبال المجاورة برمتها وساعدته على أخذ القلعة الأخرى الواقعة قرب الشاطئ، ولكن قتل مائة تركي من أكبر الشجعان ومائة جبلي في أول الهجوم، الأمر الذي جعل الجنود يرفضون استئناف القتال واضطر بربروس إلى الالتجاء إلى قصر جيجل.

ثم يتبع الحديث بعدها عن مدن الشرق الجزائري وتقسيمات مدنهم، وكذا أخلاقهم ثم المدن التونسية وأقاليمهم.

أهمية الكتاب:

ولعل من أبرز مزايا الكتاب وصف افريقيا، الذهنية المتفتحة التي كتب بها، حتى قال عنه بعض النقاد الأوربيين انه تاليف عربي بفكر أوروبي، وقد استفاد الحسن الوزان من عمله الإداري وعلاقته ببلاطي الوطاسيين والسعديين في تحديد عباراته عندما كتب عن القبائل المغربية، فجاء بإحصاءات شبه دقيقة مبنية على عدد القوانين في المدن والقرى.

واذا تحدث المؤلف عن أماكن زارها عن أي جهة من جهات إفريقيابيّ ن المسافات الفاصلة بأميال لا بالدرجات الفلكية المعقدة الشائعة عند غيره، يضاف إلى ذلك نزاهة المؤلف وحياده التام في كل ما كتب غير متأثر بعاطفة قرابة أو دين أو وطن تجده يمدح مكانا و قوما في جهة ويذم نظيرهما في الجهة أخرى تبعا لما شاهده.

يحمل الكتاب أخبار تاريخية مهمة، ويتناول بشيء من التفصيل أحيانا عادات وتقاليد المدتمعات في الأماكن التي زارها، ولكن نجده أحيانا مبالغا، وحتى ليبدو أحيانا أنه لم تطأ قدماه تلك المدن التي تناولها بالحديث.

المراجع:

الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، ج:2، ط:2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983.

محمد سليماوي، "قزاءة في كتاب "وصف إفزيقيا" للحسن بن محمد السا". مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مج:7،ع:2، 2020.

حميد أيت حبوش،قراءة نقدية في رحلة الوزان وصف إفريقيا" مجلة التاريخ المتوسطي، ع:1، 2019.